إبستمولوجيا البلاغة العربية
- المقاييس العلمية و الأصول المعرفية –

أ.هدى بن عزيزة

جامعة 8 ماي 1945- قالمة

الملخص:

تنضوي هذه الدراسة ضمن مشروع بحث كبير لبناء بلاغة جديدة تستوعب إنجازات البلاغة العربية القديمة، وتستفيد من اجتهادات النظرية اللسانية الحديثة. واستدعاء البعد الإبستمولوجي يسمح بتفسير عدد من الإشكالات التي ارتبطت بنشأة البلاغة العربية، ويتم مساءلة الأصول وإعادة قراءتها على نحو يؤدي إلى إعادة اكتشافها و بناءها. فهذه المعرفة ضمنية، تتوارث بين الخطابات و تنتقل بين القطاعات المعرفية.

الكلمات المفاتيح:إبستمولوجيا؛ بلاغة (عربية)؛مقياس أو معيار؛ أصل؛ تجديد.

Abstract:

This study is a part of a large research project that aims to build a new rhetoric that accommodates the achievements of the ancient Arabic rhetoric and draws on the jurisprudence of modern linguistic theory. The invocation of the epistemological dimension allows the interpretation of a number of problems that are associated with the emergence of Arabic rhetoric. The origins are considered and re-read in a manner that leads to their rediscovery and construction. This knowledge is implicit and inherited between discourses and it is transmitted between knowledge sectors.

Key words:

Epistemology - rhetoric (Arabic) - measure or criterion - origin – renewal

تمهيد:

يفتح الاختبار الإبستمولوجي المجال لصياغة أسئلة جديدة تخص الدرس البلاغي وحدوده وأشكاله، فكما تتساءل البلاغة عن أحوال اللغة وطرائق جريانها، لتصفها وتفسرها وتكشف عن منطق تصريفها، تتساءل إبستمولوجيا البلاغة عن هذا الخطاب نفسه، قصد الكشف عن أصوله ومنطقه واستلزاماته ومناهج تحققاته، لذلك كان من الطبيعي أن تفرز الممارسة البلاغية خطابا إبستمولوجيا موازيا يسائل ويفسر ويقوم وينتقد.

غير أن تقويم هذا المسار لا يخلو من صعوبات، فالنماذج المعتمدة لا تنتمي إلى إطار نظري واحد، وليست لها مبادئ وأسس منهجية موحدة، كما أنها لا تنتمي إلى حقبة زمنية واحدة. و لذلك لا مناص من اعتماد تقويم يزاوج بين استحضار الاعتبارات التاريخية لنمو الممارسة البلاغية وظروف تلقيها التاريخية، وبين الاعتبارات الآنية.

إن هذا المسلك يستحضر التراكم النظري الذي عرفته فلسفة العلوم في السنوات الأخيرة، و هذا يسمح باعتماد أدوات تحليلية متعددة تعتمد لغة العلم و أساليب بناء النماذج و استراتيجيات الوصف و التفسير، ورصد التقاطعات المعرفية التي تسمح بوصف عبور المفاهيم و آليات التحليل إلى علم آخر، علاوة على فهم أشكال تلقي المعرفة البلاغية و حدود استيعاب أسسها و مبادئها في الثقافة العربية المعاصرة.

فالبلاغة العربية تتحرك في فضاء متشعب يجمع بين التراث البلاغي العربي و اتجاهات البحث اللساني الحديث والبحث الإبستمولوجي رغم محدوديته. وقد شكل تفاعل المعارف المستندة إلى مرجعيات مختلفة: **تراثية و معاصرة**، مصدر ثراء وعائق بحث في الآن نفسه حالت في أحيان كثيرة دون تخصيب النقاش في قضايا مختلفة تحتاج إلى تناول علمي و إبستمولوجي لإقرار أشكال الاتصال و الانفصال بين النحو و البلاغة، و بين مفاهيم التراث و آليات النمذجة و التفسير و البناء المفهومي في اللسانيات الحديثة.

إننا ندرك جيدا أن صياغة ترسيمة مضبوطة لمجالات البحث البلاغي العربي يمثل عملا علميا يستدعي تضافر جهود الدارسين لإرساء مداخل متعددة، فـ " كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب. و هي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار فيها و إنما يبلغ الإنسان منها ما في قوته أن يبلغه "[1]. و حسبنا أننا نحاول من أجل إرساء مدخل للقراءة الإبستمولوجية، و فضل المداخل المعرفية يكمن، كما هو معروف، في إثارة الأسئلة و إضاءة مسالك العبور نحو الموضوع.

وإذا كان ثمة شيء نسعى إليه فليس سوى الحث على **ضرورة الحفاظ على التراث البلاغي العربي، وإعادة إحيائه و تقويم مساره على أسس و مقاييس علمية.**

أولا- تحديد مصطلح الإبستمولوجيا:

الإبستمولوجيا (Epistémologie) مصطلح قديم حديث[2] صيغ من كلمتين يونانيتين (Episteme) ومعناها: علم، و (logos) ومعناها: علم و نقد و نظرة و دراسة... و بذلك تكون **الإبستمولوجيا**، من حيث الاشتقاق اللغوي هي **"علم العلوم"** أو **" الدراسة النقدية للعلوم"...** و هذا ما لا يختلف كثيرا عن معناها الاصطلاحي[3]، الذي حدده **أندريه لالاند** في معجمه الفلسفي بقوله: " تعني هذه الكلمة فلسفة العلوم، و لكن بمعنى أكثر دقة، هي ليست دراسة خاصة لمناهج العلوم؛ لأن هذَه الدراسة موضوع للميتودولوجيا و هي جزء من المنطق، كما أنها ليست قطعا تركيبا أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية (على الطريقة الوضعية أو التطورية)، إنها، بصفة جوهرية، الدراسة النقدية للمبادئ والفرضيات والنتائج لمختلف العلوم، قصد تحديد أصلها المنطقي (لا النفسي)، و بيان قيمتها ومداها الموضوعي. و ينبغي أن نميز **الإبستمولوجيا** عن **نظرية المعرفة**، بالرغم من أنها تمهيد لها، و عمل مساعد لا غنى عنه، من حيث إنها تدرس المعرفة بالتفصيل، و بكيفية بعدية في تنوع العلوم والموضوعات لا في وحدة الفكر"[4].

فالمعنى المعاصر لمصطلح إبستيمولوجيا في الفلسفة العربية والفرنسية هو: الدراسة النقدية للمعرفة العلمية.

و معظم الجدل و النقاش في هذا الفرع الفلسفي يدور حول تحليل طبيعة المعرفة وارتباطها بالترميزات والمصطلحات مثل الحقيقة والاعتقاد والتعليل (أو التبرير). كما تدرس الإبستمولوجيا أيضا وسائل إنتاج المعرفة، وتهتم بالشكوك حول إدعاءات المعرفة المختلفة. بكلمات أخرى تحاول الإبستمولوجيا أن تجيب عن الأسئلة: "ما هي المعرفة؟" و"كيف يتم الحصول على المعرفة؟". و مع أن طرق الإجابة عن هذه الأسئلة يتم باستخدام نظريات مترابطة فإنه يمكن عمليا فحص كل من هذه النظريات على حدة[5].

ومع أن مفهوم "العلم" حاضر في تاريخ الفلسفة، ولاسيما عند **أفلاطون** و**أرسطو** و**ديكارت** و **لوك** و**ليبنتز**؛ فإن الإبستيمولوجيا بوصفها مبحثاً مستقلاً موضوعه المعرفة العلمية، لم تنشأ إلا في مطلع القرن العشرين حين اتجهت إلى تحديد الأسس التي يرتكز عليها العلم، والخطوات التي يتألف منها، وإلى نقد العلوم والعودة إلى مبادئها العميقة. وذلك بتأثير التقدم السريع للعلم، والاتجاه نحو التخصص المتزايد، وما ولدّه ذلك من تغيّر في بنية منظومة العلوم، ومن صعوبات وإشكالات ذات طبيعة نظرية[6].

ثانيا- طبيعة الممارسة الإبستمولوجية:

إن الوقوف على طبيعة الممارسة الإبستمولوجية يمكن من الكشف عن أوجه التداخل بينها وبين بعض **الحقول المعرفية** المتاخمة لها و من ذلك: **نظرية المعرفة** و **الميتودولوجيا** و **فلسفة العلوم** و **تاريخ العلوم**... ففي ضوء هذا التداخل بين هذه الفروع المعرفية يمكن الاهتداء إلى طبيعة الممارسة الإبستمولوجية عامة وإبستمولوجيا البلاغة العربية خاصة.

أ- نظرية المعرفة: Gnoséologie وتختص بالبحث في إمكانية قيام معرفة ما عن الوجود بمختلف أشكاله ومظاهره. و إذا كانت المعرفة ممكنة، فما هي أدواتها، وما هي حدودها، وما هي قيمتها؟ [7] .والإبستيمولوجيا

بوصفها الدراسة النقدية للعلم تختلف عن نظرية المعرفة؛ فحين تتناول نظرية المعرفة عملية تكون المعرفة الإنسانية من حيث طبيعتها وقيمتها وحدودها وعلاقتها بالواقع، وتبرز، نتيجة هذا التناول، اتجاهات اختباريه وعقلانية ومادية ومثالية، فإن موضوع الإبستيمولوجيا ينحصر في دراسة المعرفة العلمية فقط.

وإذا كانت الإجابات التي تقدمها نظرية المعرفة "إطلاقية" وعامة وشاملة، فإن الإبستيمولوجيا تدرس المعرفة العلمية في وضع محدد تاريخياً، من دون أن تنزع نحو إجابات مطلقة. بل ترى الإبستيمولوجيا في التعميمات الفلسفية لنظرية المعرفة عائقاً أمام تطور المعرفة العلمية. ذلك أن التصورات الزائفة عن المعرفة تؤثر سلبياً في مجال المعرفة العلمية، وخاصة حين تضع حدوداً للعلم. فالإبستيمولوجيا ليست استمراراً لنظرية المعرفة في الفلسفة بل هي تغير كيفي في النظر إلى علاقة الفلسفة بالعلم، وتجاوز للتناقض بين نظرية المعرفة والعلم. وليس هذا فحسب، بل إن الإبستيمولوجيا أتت على ما كان يعرف بفلسفة العلم، التي تولدت من علاقة الفلسفة بالعلم وتناولت جملة موضوعات أهمها علاقة العلم بالمجتمع وتأثيره في تكوّن النظرة الفلسفية إلى الطبيعة والكون[8].

ب- **الميتودولوجيا:** و هي من اليونانية (Méthodos)، و معناها الطريق إلى...، المنهاج المؤدي إلى...، هي علم المناهج، و المقصود تحديدا مناهج العلوم. و المنهاج العلمي هو جملة من العمليات العقلية، و الخطوات العملية، التي يقوم بها العالم، من بداية بحثه حتى نهايته، من أجل الكشف عن الحقيقة و البرهنة عليها[9].

ج- **فلسفة العلوم:** وهي مصطلح غامض عائم: فكل تفكير في العلم، أو في أي جانب من جوانبه، في مبادئه أو فروضه أو قوانينه، في نتائجه الفلسفية أو قيمته المنطقية والأخلاقية، هو بشكل أو آخر " **فلسفة للعلم** ".فإذا نظرنا إلى فلسفة العلوم بالمعنى الواسع، وجدنا أن الإبستمولوجيا فصلاً من فصولها، أو شكلا من أشكال ممارستها. و لفلسفة العلم أربعة وجوه مختلفة:[10]

- دارسة علاقاته بالعالم وبالمجتمع.، أي العلم من حيث هو ظاهرة اجتماعية.
- السعي لوضع العلم ضمن مجموع القيم الإنسانية.
- المحاولات الفكرية التي تنطلق من نتائج العلم وتجاوزها لبلوغ ما يمكن تسميته فلسفة الطبيعة.
- التحليل المنطقي للغة العلم.

د- **تاريخ العلوم:** يستوجب كل بحث عن الأسس التي يقوم عليها الفكر العلمي بحثا في تاريخ العلوم. يقول **بيير بوترو:**" إن تاريخ العلوم، المدروس بشكل ملائم، يزيد من حظوظنا في اكتشاف أسس التفكير العلمي واتجاهاته... إنه المقدمة الطبيعية لفلسفة العلوم"[11]. وما يهم الإبستمولوجيا من تاريخ العلوم هو تطور المفاهيم وطرق التفكير العلمية، و ما ينشأ عن ذلك من **قيام نظريات معرفية جديدة**[12].

فما هي علاقة الإبستمولوجيا بهذه التحديدات؟

ترتبط الإبستمولوجيا مع الأبحاث المعرفية السابقة، على النحو الآتي:[13]

- ترتبط الإبستمولوجيا بالميتودولوجيا من جهة تناولها لمناهج العلوم، ليس من الزاوية الوصفية التحليلية وحسب، بل و بالأخص، من زاوية نقدية و تركيبية أيضا.

- و ترتبط بنظرية المعرفة بمعناها العام من حيث إنها تدرس طرائق اكتساب المعرفة وطبيعتها وحدودها، ولكن ليس من زاوية التأمل الفلسفي المجرد، بل من زاوية فحص المعرفة العلمية والتفكير العلمي فحصا علميا ونقديا قوامه الاستقراء و الاستنتاج معا.

- كما أنها وثيقة الصلة بتاريخ العلوم من حيث إنها تدرس تاريخ العلم، لا لذاته، بل من زاوية كونه مسلسلا لنمو الفاعلية البشرية، الفكرية خاصة، التي هي عبارة عن تحقق إمكانيات الذات في فهم العالم و تغييره، و بالتالي تحقق إمكانيات وعي الذات بنفسها وقدراتها و حدودها.

- فهي إذن " **فلسفة للعلم** "، تتلون بلون المرحلة التي يجتازها العلم في سياق تطوره و تقدمه، وبلون الفلسفات التي تقوم خلال كل مرحلة، أو حقبها مباشرة.

باعتبار ما سبق تكون الإبستمولوجيا، و الأبحاث الأخرى المحاقلة لها، بمثابة حد واحد، وكل فصل بينها يبقى فصلا غير واضح. غير أن هذا التداخل لا يحول دون وجود بعض التعريفات التي تحاول أن تضع معالم تحديدية واضحة للإبستمولوجيا، كأن تجعلها **تخصيصا للمعايير التي توصل إلى اكتشاف أشكال المعرفة**، أو فرعا من فروع الفلسفة يهتم بطبيعة و أهداف المعرفة، وبمسلماتها و أسسها.

وهناك من يعتبر الإبستمولوجيا فلسفة بشكل خالص، لأنها تسائل العلم بواسطة مقولات فلسفية. كما نجد من يربطها بالمنطق **" من حيث إنها كالمنطق تدرس شروط المعرفة الصحيحة. و لكنها تختلف عنه من حيث إن المنطق يعنى بصورة المعرفة فقط، في حين أنها تهتم بصورة المعرفة و مادتها معا، و بالأخص بالعلاقة القائمة بينهما "** [14].

فما هي إشكالات العلم التي تتطلب تدخلاً إبستيمولوجياً؟

إذا كانت الإبستيمولوجيا مبحثاً موضوعه المعرفة العلمية، وهدفه التحليل النقدي لها، **يعد إشكال المسار الذي تسلكه المعرفة العلمية واحد من أهم إشكالات الإبستيمولوجيا.** حيث انقسم الإبستيمولوجيون - في النظر إلى هذا الإشكال- إلى فريقين: فريق نظر إلى مسار العلم على أنه سيرورة متصلة مستمرة لا انقطاع فيها ولا انفصال. وفريق آخر رأى أن مسار العلم مسار انقطاع واضطرابات وأزمات وثورات. ويعد **إميل ميرسون**Emil Meyerson **وليون برنشفيك** Léon Brunschvicg أهم دعاة الاتجاه الذي يقول بالاستمرارية. والمعرفة العلمية - من وجهة نظر هذا الاتجاه- استمرار وتطور للمعرفة العادية. كما أن كل معرفة علمية جديدة هي استمرار للمعرفة العلمية السابقة؛ فتاريخ العلم سلسلة يتولد بعضها من بعض. وما التغير الذي يحدث في العلم إلا تغير تدريجي، ويستدلون على صحة رأيهم بالتطور التدريجي للمنهج العلمي وطريقة انتشاره. والذي يفصل بين هذين النمطين من المعرفة العلمية هو مفهوم "**القطيعة الإبستيمولوجية**". وليس المقصود بـ "القطيعة الإبستمولوجية" ظهور مفاهيم و

نظريات و إشكاليات جديدة و حسب، بل إنها تعني أنه لا يمكن أن نجد أي ترابط أو اتصال بين القديم و الجديد[15].

ثالثا- إبستمولوجيا البلاغة العربية:

استنادا إلى التحديدات السابقة تكون **إبستمولوجيا البلاغة العربية مقاربة تهتم بصورة المعرفة البلاغية، بغية تقويمها من جهة أسسها و مبادئها المصرح بها أو المسكوت عنها.**

إن تأطير عمل ما في خانة التحليل الإبستمولوجي يقتضي أن تكون مقدمة الانطلاق هي الكشف عن المقدمات الاستلزامية للنظر الإبستمولوجي، وهي مقدمات نهتدي بواسطتها إلى استخلاص العبر المعرفية و القيم الإبستمولوجية للبلاغة العربية مادامت الإبستمولوجيا تقويما لنوع خاص من المعارف هو المعرفة العلمية التي ترتبط بدورها ارتباطا وثيقا باللغة الموظفة في التعبير عن مضامين العلوم.

1- المقاييس العلمية:

إن المراد بصفة العلمية في طائفة من الأقوال النظرية التي اهتمت بشؤون لغات العلوم، جملة المقاييس أو المعايير التي كلما تحققت في الرسوم التبليغية، و الصيغ التعبيرية للغة ما إلا جعلتها صالحة لنقل تصورات النظار، سواء في علاقتها بالواقع أو في علاقتها باللغة، نقلا لا يشوبه لبس و لا غموض، و هو ما لخصه **غاستون باشلار** بقوله: " **لكي يجد المرء آذانا صاغية داخل المدينة العلمية ينبغي أن يتكلم علميا لغة العلوم**"[16].

لقد نوقشت هذه المسألة بكيفية عميقة، في مختلف نظريات المعرفة، كما استأثرت باهتمام المناطقة، خاصة الوضعيين منهم، وكانت إحدى الغايات القصوى من الجدل الواسع الذي صاحبها، تحديد ماهية " **العلمية** "، ومحاولة إزاحة التناقضات والالتباسات المفهومية التي تحدثها اللغة الطبيعية حين تعتمد في نقل فحاوى المعارف، ووضع مقاييس و ضوابط صارمة، قابلة للتحقق في الكتابة العلمية (البحث عن لغة " متقنة الصنع "langue bien faite أو عن " لغة جيدة " langue parfaite). ولم تسلم المصطلحية، بحكم اشتغالها بعلاقة المصطلحات بالمفاهيم، من عدوى الخوض في قضايا هذه المسألة، بل إن عددا هاما من مبادئها، مستوحى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مما يذكره الفلاسفة.[17]

ولم يتردد اللغويون الغربيون أو العرب المحدثون عن الولوج في دائرة هذا النقاش، مضيفين ما تصوروه متمما لخصائص مفهوم العلمية و مقاييسه، و إن كان ما أضافوه لا يتعدى النزر القليل إذا ما قورن بما اقتبسوه من توصيات المناطقة و المصطلحيين الغربيين. حيث أسفر هذا النقاش عن مقاييس متعددة، كان الغرض من وضعها صياغة قانون أو نظام يسوغ بموجبه التعبير عن فرضيات العلوم و استدلالاتها و نتائجها تعبيرا **متقنا** أو بالأحرى تعبيرا **علميا**. فكانت تلك المقاييس آلة، سواء في نظر مبدعيها، أو في نظر من نقلوها عنهم، بها فقط يحدث التميز، ويقوم الفصل داخل أساليب القول و طرائق التعبير بين ما هو علمي منها، وما هو غير علمي. وصار الاحتكام إلى مقتضياتها الطريق الناجع في باب تفضيل لغة على أخرى. و هكذا كانت لغات الغربيين، في نظر البعض، أكثر التصاقا بصفة العلمية من

غيرها من لغات علوم شعوب أخرى، بل إنها أحرزت، في أحد الاعتقادات، قصب السبق بشكل لا نظير له. لذلك آمن أهل هذا الاعتقاد ومن ناصروهم فيه، **أنهم يحتكموا في دراسة لغات علوم العربية و في تقييمها إلى المقاييس التي باحترامها تتحقق هذه الصفة في شرائع لغة العلوم عند الغربيين، غير مبالين بالاختلافات الجوهرية و العميقة بين ما يحتكمون إليه، وما هو متأصل من المقاييس أو القواعد في لغات العلوم عند العرب**[18].

و المراد من مقاييس علمية لغة العلم الكيفية التي تقدم بها في التصورات المنطقية و المصطلحية و اللغوية التي اهتمت بجوانب هذه المسألة، كما ينبغي الإشارة إلى أمرين: أحدهما عدم كفاية هذه المقاييس في تقييم لغات المعرفة التراثية، و ثانيها فحص مضامينها بالنظر إلى معطيات لغات العلوم قديمها و حديثها، والى النظرية التي تستند إليها. وعموما ليس الغرض من عرض أهم مقاييس العلمية هدفا في حد ذاته، وإنما القصد معرفة إمكانات امتدادها إلى لغة المعرفة البلاغية.

1-1- مقياس "الدلالة الأحادية":

يراد بمقياس " **الدلالة الأحادية** " من خلال المنظور المنطقي الذي هيمن على المصطلحية الكلاسيكية، عدم تخصيص المفهوم العلمي بأكثر من مصطلح واحد. وهو المراد الذي مازالت تفيده المنظمة العالمية للتوحيد المعياري " **إيزو** " **(Iso)** في تعريفها لهذا المقياس الذي حدد في توصيتها رقم 1087 على النحو التالي:" الدلالة الأحادية هي العلاقة بين تسمية و مفهوم، لا تعكس فيها التسمية إلا مفهوما واحدا "[19].

1-2- مقياس "إلزامية التعريف ووحدته":

يصادف الناظر إلى الأعمال المصطلحية، سواء منها ما يتعلق بالبحث في الخصائص النظرية للغة العلم، أو ما يتصل بالمنهجيات المقترحة " للتدوين المصطلحي "، طائفة من التعريفات التي تهدف جلها إلى تحديد مفهوم "**التعريف** " في لغة العلم. من بين هذه التعريفات نجد:

أ- التعريف المصطلحي عملية تهدف إلى تحديد مجموع الخصائص الداخلة في ما يصدق عليه مفهوم ما، أما نتيجة هذه العملية، فهي قضية تعبر عن معادلة بين المصطلح و المعرف، ومجموع الخصائص التي تعرفه.

ب- يسمح التعريف بتمييز مصطلح ما عن المصطلحات الأخرى التي توجد معه داخل شبكة مصطلحية معينة.

1-3- مقياس "النظام التركيبي الميسر":

ينص مقياس " **النظام التركيبي الميسر** "، عند بعض المتحدثين عن خصائص اللغة العلمية، على وضع نظام نحوي ميسر يناسب دارسي العلوم. و من الموافقين على هذا المقياس من اشترط ألا يكون المراد بالنحو جوانب الشكل الإعرابي، بل قضايا التركيب بصورة شاملة، تتناول علاقات أجزائه بعضها ببعض، من حيث التقديم والتأخير و الذكر و الحذف... و لخصها عبد الصبور شاهين بقوله:" إن اللغة العلمية

يجب أن تتوصل إلى أداء معانيها بقوالب لغوية سهلة بسيطة التركيب، كما يجب أن تتجنب استخدام أدوات كثيرة في جملة واحدة" [20].

1-4- مقياس "المطابقة":

ميز المناطقة الوضعيون في دراستهم للقضايا بين "قضايا اختبارية" و "قضايا صورية". تضم الأولى كل القضايا التي تتحدث عن الواقع، و يمكن التأكد من صحتها أو عدم صحتها بواسطة التجربة، أما الثانية فتشمل القضايا التي لا تتحدث عن الواقع إذ تكتفي بتنظيم كيفية حديثنا عنه و ترتيبه.و هكذا ستكون الأولى هي ما يمثل محتوى علوم الواقع.

وفي إطار هذا التمييز، يقترن حديث المناطقة الوضعيين عن القضايا الاختبارية بحديثهم عن مفهوم "المطابقة". أما سبب هذا الاقتران فهو سعيهم نحو التمييز داخل هذه القضايا بين ما هو صادق منها، و ما هو غير صادق. ومعلوم أن الصدق عندهم شرط أساسي من شروط عملية القول العلمي؛ فلكي يكون قول ما قولا علميا يجب أن تكون قضاياه مطابقة تمام التطابق لما تشير إليه في الواقع.

1-5- مقياس "الاستقلالية":

إن من شروط علمية اللغة العلمية في الفلسفة الوضعية استقلاليتها المطلقة عن ذات منشئها و عن الإطار التاريخي الذي أنشئت فيه.

1-6- مقياس "الكتابة المعيار":

يقصد بمقياس الكتابة المعيار النموذج العام الذي يحدد كل عنصر من عناصره سمة من سمات فعل الكتابة في مجال التأليف العلمي، سواء من جهة طبيعة المفردات المستخدمة، أو من جهة طبيعة التراكيب الموظفة، أو من جهة بعض الأنساق السميائية غير اللغوية.

1-7- مقياس "التوليد الصوري":

يقصد بالتوليد الصوري اختراع مفردات جديدة لم يسبق إلى وضعها من أجل التعبير عن مفاهيم ووقائع جديدة، أو أخرى قديمة. وهو بهذا المعنى يقابل التوليد الدلالي الذي يراد به عزل القوالب اللفظية القديمة عن دلالتها التي علقت بها منذ الوضع الأول، وشحنها بوحدات دلالية مستحدثة.

1-8- مقياس "الإيجاز":

إن المراد بمقياس الإيجاز تبليغ المحتويات المعرفية بأقل ما يمكن من الألفاظ و العبارات، ومن أقدم الوسائل اللغوية وسيلة النحت.

ما بقي لنا إلا أن نتساءل عن مدى مشروعية هذه المقاييس في تقييم صفة "العلمية" ؟

2- الأصول المعرفية للبلاغة العربية:

إن إعادة النظر في البلاغة القديمة و البحث عن بلاغة جديدة أصبح مطلبا ضروريا، بل ملحا. إذ تحتل البلاغة مكانة مرموقة في الدراسات الأدبية و اللغوية، حيث أصبح ينظر إليها ليس كعلم لتحليل النصوص في بعدها الجمالي، بل" تطمح لأن تصير علما عاما للخطاب (الخطابات)، بل و علما مستقبليا لجميع فروع المجتمع (المجتمعات)"[21]. و هذا ما أشار إليه **هنريش بليت** الذي قال:"إن سبب هذه «النهضة» البلاغية يرجع، في مجال التنظير، إلى الأهمية المتزايدة للسانيات التداولية، و نظريات التواصل و السيميائيات و النقد الإيديولوجي. و كذا الشعرية اللسانية في مجال وصف الخصائص الإقناعية للنصوص، وتقويمها"[22]. فقد تطورت في العصر الحديث و يرجع ذلك إلى إفادتها من مناهج البحث في مختلف الحقول المعرفية، وهذا التقارب سره أن البلاغة تعالج قوة التأثير في الآخر و كيفية إقناعه، و بيان كل المقاصد التي يهدف المتكلم إلى تحقيقها. و هذا يعد من أهم مباحث التداولية التي تدرس التفاعل بين الخطيب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير.

و الدعوة إلى التجديد في البلاغة ليست أمرا حديثا مبتدعا، فمنذ القرن الثالث الهجري دعا **ابن قتيبة** إلى التجديد، وقال قولته المأثورة:" لم يقصر الله العلم و الشعر و البلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"[23].

وفي القرن السادس الهجري ثار **ابن بسام الشنتريني** في أقصى المغرب و شكا من الجمود و تقليد المشارقة، فقال:" وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالإحسان ... و الإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وغزير على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر، و لحى الله قولهم: الفضل للمتقدم، فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين، لضاع علم كثير، و ذهب أدب غزير"[24].

كما نجد الإمام **عبد القاهر الجرجاني**، من خلال ما ورد في تراثه البلاغي، يفسح المجال للتجديد في البحث البلاغي، و يترك الباب مفتوحا أمام كل باحث مجدد. وكان حريصًا على أن يذكر في أكثر من موضع [25] أنَّ هذا الجهد الكبير الذي بذَله لا يعدُّ الكلمة الأخيرة، وأنَّه ليس في استطاعة أيِّ باحثٍ - مهما أُوتِي من علم- أن يستقصِي مسائل الفن البلاغي، أو أنْ يدَّعي لنفسه العلم والإحاطة بذلك، أو أنْ يسدَّ بابَ الاجتهاد.

أما في العصر الحديث فإن " قلة ما أنجز من الدراسات في هذا المجال سواء كانت استكشافية وصفية أو تفسيرية. فباستثناء أعمال قليلة، فإن الدراسات المنجزة في مجال تاريخ البلاغة بالتحديد دراسات جزئية تتناول ظواهر أو قضايا لها أهمية أحيانا و لكنها ليست أكثر من لبنات من بناء تجب إقامته على قاعدة واسعة "[26]. ومن الذين حاولوا وضع معالم جديدة للبلاغة العربية أمثال: أمين الخولي (فن القول) ، أحمد الشايب (الأسلوب)، حسن الزيات (دفاع عن البلاغة)، علي العماري (البلاغة

العربية وحاجتنا إلى التجديد)، مصطفى الجويني (الفكر البلاغي الحديث)، مصطفى ناصف (اللغة و البلاغة و الميلاد الجديد)، أحمد مطلوب كامل وحسن البصير (البلاغة و التطبيق)، مصطفى الصاوي الجويني (البلاغة العربية تأصيل و تجديد)، أحمد مطلوب (البحث البلاغي عند العرب)... و غيرهم. فهي كلها دراسات تسعى إلى المحافظة على الرؤية التراثية، وهي تدخل في هم إحياء التراث و التعريف به، و تقريبه من القراء[27]. كما أنها " لم تعتن عناية كافية بالأسس التي يقوم عليها التفكير في جمالية اللغة عند العرب، فجاء جلها تاريخا للتأليف البلاغي لا للبلاغة و لا يخفى الفرق بين الوجهين"[28].

و قد لخص العمري المراحل التي مرت بها إعادة الكتابة في البلاغة العربية إلى مرحلتين :[29]

1- مرحلة السرد التاريخي و تلخيص محتويات الكتب: يمثلها مصنف البلاغة تطور و تاريخ لشوقي ضيف. وهي مرحلة وصفية تلخيصية.

2- مرحلة الكتابة من منظور حداثي لساني: يمثلها مصنف التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) لحمادي صمود.

أما الإنتاج البلاغي بالمغرب فإنه ينحو منحيين واضحين:[30]

1- المنحى التراثي (البلاغة القديمة) الذي ظل مرتبطا بالبلاغة العربية.

2- المنحى الحديث و يتكون من مجموعة من التيارات التي تختلف مرجعياتها:

أ- تيار البلاغة الجديدة بمفهومها العام، و تمثله مؤلفات محمد العمري و محمد الولي و محمد مشبال و غيرهم.

ب- التيار الفلسفي: وتمثله كتابات طه عبد الرحمن و محمد مفتاح و حسان الباهي و حمو النقاري.

ج- التيار اللساني بشقيه الدلالي و التداولي: يتناول عددا من المواضيع البلاغية خاصة التشبيه و الاستعارة والمجاز، باعتبارها جزءا نسقيا من الملكة اللغوية لدى المتكلم معتمدا على ما يقدمه علم النفس المعرفي من معطيات. و من المؤلفات الهامة التي ظهرت في هذا التوجه: **"بنيات المشابهة في اللغة العربية"** لعبد الإله سليم، و**"التوليد الدلالي في البلاغة و المعجم"** لمحمد غاليم، و**"الاستعارة و المعرفة"** لمجموعة من الباحثين بكلية الآداب بابن مسيك.

و من خلال الطرح الذي تقدمه **اللسانيات التداولية**، يرى العديد من الدارسين أنها قد تكون مدخلا مناسبا لدراسة التراث البلاغي العربي، لما توفره من آليات في الكشف عن المعنى و مكوناته، بحيث إنها طريقة للنظر من جديد في مادة اللسانيات و مناهجها. ومن الجدير بالاهتمام النظر إلى أن ثمة حاجة إلى نظرية تداولية تأخذ مكانها بجانب التركيب و الدلالة و الأصوات داخل نظرية شاملة للبلاغة. وقد صارت **اللسانيات التداولية** بمختلف مجالاتها ركيزة أساسية في الدرس اللغوي و الأدبي.

و تنهض **اللسانيات التداولية** على أفكار أغفلتها اللسانيات البنيوية و التوليدية، مثل فكرة السياق و المقام، وفكرة تفاعل المتكلم والسامع، والنظر إلى اللغة كسلوك اجتماعي و ليس كنظام شكلي، فقد صار

مفهوم اللغة يقوم على أساس أنها أفعال كلامية و إنجازات تأخذ مكانها في مقامات و أزمنة معينة، كما يقوم على مفهوم وظيفي يربط بين البنى اللغوية بوظائفها التواصلية، و يجعل القدرة اللغوية أكثر اتساعا مما كانت عليه في اللسانيات التوليدية مع تشومسكي.[31]

كما يتميز الطرح التداولي بربطه بين البنية و الوظيفة، خلافا للسانيات البنيوية و التوليدية التي تفصل بينهما. فتشومسكي يرى أنه "ليس ثمة ما يثبت أن الوظيفة تحدد البنية و يمكن بالتالي، خلافا لما ذهب إليه فلاسفة اللغة العادية، دراسة بنية اللغة دون الانطلاق من وظيفتها كما يمكن للفزيولوجي أن يدرس بنية القلب دون أخذ وظيفته (ضخ الدم) بعين الاعتبار. ويترتب على هذا أن الجوانب الوظيفية للغة يمكن أن تدرس، إذا أريد دراستها، خارج النحو، أي في إطار « نظرية الإنجاز » "[32].

و يرى البنيويون و التوليديون أن وظيفة اللغة هي "التعبير عن الفكر"، وهذا ما لا يقره التداوليون الذين يرون أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل، و أنه لا يمكن حصر هذه الوظيفة في نقل الأفكار لأن اللغة تختلط بالحياة الاجتماعية للناس ووظائفها أشد تعقيدا مما يظن. فهي تقوم أساسا بإبراز القواعد التي تحكم الخطاب تبعا لمقامات المشاركين فيه، و للاستراتيجيات المتبعة، وأفعال الكلام المنجزة والمؤسسات المختلفة التي يعرف لها تأثير على التعاملات اللغوية. أي أنها تدرس الكلام في حالة استعماله مرتبطا بسياقه و المشاركين فيه وبمختلف ظروفه وشروطه.ولهذا نشأت علوم يتجاوز مجال دراستها الجملة إلى دراسة النص و الخطاب.

فما علاقة اللسانيات التداولية بالبلاغة العربية؟

لوحظ أنه ثمة اهتماما بالغا بعلم البلاغة، حيث رصدت لها أعمال كثيرة في الغرب وعند العرب، وتم إحياءها لتصير علما معاصرا قائما على أسس علمية نظرية وتجريبية. وللربط بين البلاغة و اللسانيات التداولية ما يبرره، فقد كانت البلاغة الغربية في عهودها القديمة ذات خصائص تداولية حيث كانت تعلم سبل إقناع المتلقي بصحة قضية ما. و الأهم من ذلك أن المفهوم المفتاح بالنسبة إلى اللسانيات التداولية هو نفسه المفهوم المفتاح بالنسبة للبلاغة، وهو مفهوم **"المقام"**. و يتجلى ذلك بوضوح أكبر في البلاغة العربية، وإن كانت البلاغة الغربية لا تخلو منه، فإن ارتباطها بالمقام يوضحه أشهر تعريف لها وهو أنها **"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"**، أي ربط البنيات اللغوية (الكلام) بما يقتضيه المقام من أحوال مختلفة.

وبعد هذا العرض الموجز يمكن أن نؤكد أن للبلاغة العربية معيارين أساسيين:

1- المعيار الوظيفي:

فالبلاغة درس وظيفي للغة لأنها تقوم على اعتبار دور السياق و المقام في صياغة البنية اللغوية، و تربط بينهما، بحيث يعتقد البلاغيون أن خصائص البنية تعكس وظيفة التبليغ المرتبطة بالمقام، كما أن البلاغة ترتكز على أغراض المتكلم من خلال الربط بين البنيات اللغوية و بين مقاصد المتكلم.

2- المعيار الاجتماعي:

إذا كانت البلاغة تبحث في وظائف الكلام في سياق تواصلي محدد، فإن كل سياق تواصلي يقوم على علاقة اجتماعية بين متكلم و متلق، أي علاقة تفاعلية يؤخذ فيها بعين الاعتبار: الأعراف الاجتماعية و المعارف المشتركة بين المتخاطبين.

خاتمة:

نخلص من كل ما سبق إلى أن تجديد النظر في البلاغة العربية ينبغي أن يراعي طبيعتها، فقد فشلت محاولات تجديدها لأنها تخالف في طبيعتها طبيعة البلاغة العربية التي هي أساسا وظيفية و اجتماعية، ولذلك فإن تجديد النظر فيها وإعادة قراءتها ينبغي أن يستند إلى وجهة نظر وظيفية يلعب المقام دورا رئيسا، و هذا ما تقدمه اللسانيات التداولية و اللسانيات الوظيفية و اللسانيات الاجتماعية.

الإحالات:

[1]- أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3: 2008،ص78.

[2]- ينظر: محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، العقلانية المعاصرة و تطور الفكر العلمي، مركز الدراسات العربية، بيروت،لبنان، ط5: 2002م، ص17.

[3]- المرجع نفسه، ص18-19.

[4]- André Lalande, vocabulaire technique et critique de la philosophie, Quadrige/Presse Universitaires de France(PUF), Pris, 1re édition : 1926, volume 1 : A-M, p 293.

و الترجمة لـ:

- محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، ص 18.

- حافظ إسماعيلي علوي و امحمد الملاخ، قضايا إبستمولوجية في اللسانيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1: 2009، ص 21-22.

[5] -ينظر: محمد عابد الجابري، مدخل الى فلسفة العلوم، ص44.

[6]- ينظر: سالم يفوت، إبستمولوجيا العلم الحديث، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط2: 2008، ص 105.

[7]- المرجع السابق، ص20-21.

[8]- المرجع نفسه، ص22.

[9]- المرجع نفسه، ص 22-23.

[10]- المرجع نفسه، ص 24.

[11]- المرجع نفسه، ص 40.

[12]- المرجع نفسه، ص 42.

[13]- المرجع نفسه، ص48.

[14]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[15]- المرجع نفسه، ص42- 43.

[16]- غاستون باشلار، الفكر العلمي الجديد، ترجمة: عادل العوا، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، ط2: 1983، ص 15.

[17]- ينظر: زكرياء أرسلان، إبستمولوجيا اللغة النحوية: بحث في مقاييس العلمية و مرجعيات التأسيس و التأصيل، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1: 2016، ص 29.

[18]- ينظر "أصول مجال التداول الإسلامي العربي": طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2:دت،ص243 و ما بعدها.

[19]- المرجع السابق، ص 37.

[20]- المرجع نفسه، ص 43.

[21]- عمر أوكان، اللغة و الخطاب، رؤية للنشر و التوزيع، تونس، ط1: 2011، ص 162.

[22]- هنريش بليت، البلاغة و الأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب،1999، ص 22.

[23]- ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ج 1، ص63.

[24]- أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط:1997، ج1، ص 14/13/12.

[25]- يختم الإمام بعضَ مباحثه البلاغيَّة بما يُؤكِّد هذا المعنى، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجدُه بعد حديثه عن أسرار حذف المفعول يقول: "وليس لنتائج هذا الحذف، أعني حذف المفعول، نهاية. فإنه طريق إلى ضروبٍ من الصنعة وإلى لطائف لا تُحصَى." ينظر: دلائل الإعجاز في علم المعاني،تح: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002، ص 190. وفي نهاية فصل في الكناية والتعريض يقول: "وليس لشُعَبِ هذا الأصل وفُروعه، وأمثلته، وصوره وطرقه ومسالكه، حَدٌّ ونهاية." ينظر: دلائل الإعجاز، ص 310. وفي حديثه عن العِبرة والتفصيل في ضروب التشبيه والتمثيل يقول: "واعلَم أنَّ هذه القسمة في التفصيل موضوعةٌ على الأغلب الأعرف، وإلاَّ فدقائقُه لا تكاد تُضبَط". ينظر: أسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، المنار، ط3: 1939، ص 146.

[26]- محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها و امتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2: 2010، ص9.

[27]- ينظر المرجع نفسه، ص 10.

[28]- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط3: 2010، ص 12.

[29]- ينظر المرجع السابق، ص 9-10-11.

[30]- محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب مقاربة لمشروع محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة و الخطاب، إعداد وتنسيق: محمد مشبال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1:2014، ص 242-243.

[31]- للمزيد من التفاصيل ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، الرباط، 1989، ص 73و76.

[32]- المرجع نفسه، ص53.